العرب
الأحد 2020/10/18
السنة 43 العدد 11854

فنان مغربي يعيد ترتيب شظايا الكون فوق القماشة

عبدالإله الشاهدي يدوّن سجلا زمنيا لهيئات وحالات نسائية متغيرة ومختلفة

إن مـا فرضته جائحة كورونا لم يكن سـهل الاسـتيعاب ومازالت آثاره تتعاظم يوما فآخر، لا فقط لفداحة الموت والخوف من الحاضر والمستقبل، بل لمداركنا التي نحتناها على مـر القرون وأفكارنا وتصوراتنا الجمالية والفكرية والعلمية، حيث تزعزعت مكانة الإنسـان المعاصر، مبشرة بنهاية حقبة وولادة أخرى. الولادة الجديدة واكبها الكثير من المبدعين، من أدباء وموسـيقيين ورسامين، وإن كان الظهور الأبرز للرسامين، الذين باتوا في صدارة المشهد الثقافي اليوم مستطلعين المآلات بريشاتهم.

عزالدين بوركة
شاعر وباحث مغربي

ما الذي يعلّمنا الفنّ؟ إنه يعلمنا العزلة والانعتـاق منها فـي الآن ذاتـه، نوع من التناقض الذي لا يمكـن الانفلات منه، من حيث أن التناقض ليس عيبا في العالم، بل إنه جزء من عوالم تقدمه وتطوره، إنه حق من حقوق الإنسـان كما يخبرنـا بودلير، و"إن التناقض الظاهري هو مصدر انفعال المفكـر" يقـول كيركغـارد، الـذي يرى أن "المفكـر بـلا تناقـض أشـبه بعاشـق بلا شـعور". ونحن في هذه العزلة الإجبارية، عزلـة الكائـن الخفي في زمننـا المعاصر وألفيتنـا الجديـدة، نجـد أنفسـنا إزاء العـودة إلى الذات، العـودة إلى الأعماق، والغوص بعيدا. بعيدا في عزلتنا السرية، مشـدودين ومنذورين إلى الصراع القائم بـين الداخـل والخـارج، بـين الصمـت والصخـب، بـين الأنـا والنحن/الـ"هُم". وهـذا ما نقرأه في العمـل الفني المعنون "الحرية المنتهكة؛ 2020"، للفنان التشكيلي المغربي عبدالإله الشاهدي.

الانعطاف والعزلة

يجمـع عبدالإله الشـاهدي في عمله الأخير بين الواقعية المفرطة والسُـريالية المتجـددة، نـوع مـن حساسـية توضب فوضاهـا المبعثـرة فـي كون القُماشـة، لتخبرنـا بأننا صرنا سـجناء هذا العالم المعاصر، الذي يصعب فهمه؛ عالم سـائل وغـازي، عصي على إدراك تفاصيله، عالم بقدر مـا ينتقـد الميتافيزيقا فهو يشـيد ميتافيزيقاه الجديـدة، لكننا غير قادرين علـى الهروب منه؛ كذلـك العصفور الذي يفضـل الموت على أن يُسـجن فـي عزلة القفص.

هذا ما يخبرنا به الفنان التشـكيلي المغربـي المعاصـر، المنتصـر للصباغة دائما، جاعلا من نفسـه طائرا سـجين العزلـة القسـرية بفعـل هـذا الوبـاء الخفي، كأننا "نطارد شـبحا يطاردنا"، لا حـل لدينا، إمـا أن نواجهه أو نموت منعزلـين غرباء. إننـا إذن، ذلك الطائر؛ ونحـن أيضا تلـك الفتاة التـي انقلب رأسـها وباتـت تنظـر إلـى العالم من الأسـفل لعله يعتدل ويعدل عما آل إليه. ونحـن إزاء هذا العمـل الفني نقف عند نقطـة انعطـاف مهمة فـي تجربة هذا الصباغي المتعلق بشدة بفن الرسم والصباغة المعاصريْن، إذ يُطور بشكل مستمر وبلا انقطاع آليات اشتغاله عبر استحداث تقنياته الخاصة أو تجريب أساليب ومواد خاصة يمزجها مع الأصباغ الطبيعية والمصطنعة.

وقـد كان لهـذا الحـدث الإنسـاني غير المسـبوق -الـذي نعيشـه- عامل كبيـر في هـذا الانعطـاف الجمالي في تجربة الفنان، حيـث نجد له أثرا كبيرا في أعماله الأخيرة المشـدودة إلى إبراز الجانـب العميق فـي الذات البشـرية المنعزلة إلى وحدتها القسرية، هاربة من موت خفي.

يعمـل الشـاهدي علـى مواضيـع إنسـانية تهتم في أغلبهـا بالمرأة ثيمة واشـتغالا، المـرأة مـن حيـث إنها الأم والزوجـة والأخت وأيضا من حيث إنها نصـف المجتمـع الذي يقع علـى عاتقه تربية وتنشئة النصف الثاني.

كل هذا عبر أعمال تستند إلى واقعية مفرطة، لكنها تهرب إلى سريالية خاصة تزاوج بـين الواقعي والحُلمـي، لكنها تنتصـر للإنسـاني -المتعلـق بمعاناة المرأة بالخصوص.

لهذا نجده فـي عمل صباغي (رمال الزمن، 2018)، يضع المتلقي أمام سـاعة رمليـة حيث تتسـاقط رمـال وجه فتاة شابة إلى أسفل قارورة الساعة لتُكوّن لنا وجه امرأة عجوز، بينما تسـبح الساعة في بحر هائج، الذي يشـير إلى تقلبات الزمن وصعوباته التي لا يمكن الهروب منهـا، فهو سـائل وهارب يسـتعصي علينا دائمـا إدراكه أو اقتناص لحظاته المنفلتة، لهـذا نحن محكمـون بظروفه وبالشيخوخة والزوال.

إذن لا مفـر مـن "الرحيل" كحق ثان إلى جانب التناقض الذي نسيته حقوق الإنسان كما يقول بودلير.

فالشـاهدي يقدم لنا سـجله الزمني لهيئـات وحـالات نسـائية متغيـرة ومختلفـة، اهتمامه هذا مـردّه إلى ذلك التعلق الكبيـر الذي ربطه بالأم، وجعله يُكرّمهـا ويعلي مـن قدرهـا (صورتها تحضر في مجموعة من أعماله). متخذا منهـا، أي المـرأة، مدخلا لمناقشـة قيم الحرية والذاتية والاسـتقلالية.. لإنشاد مجتمع الحداثة والتقدم.

الدهشة والتجريب

نقف أمام أعمال هذا الفنان المشدود إلى الدهشة وإلى التجريب، كأننا نقف أمام أرض خصبـة معطاء ولود، أرض عامـرة بالدلالـة والعلامـات والبـؤر البصريـة الغنية التي لا تقف عن توليد دلالاتها ومعانيها في تضاعف وتكاثر.

إن كل صـورة بصريـة فـي العمل لديه تغدو أيقونة ما يجعل منها حاملة لقدسـية خاصـة. حيث تغيب نسـاؤه وسـط الحمـام والعصافيـر والرمـال والمياه والفراشـات وهيولى الصباغة (السـديم). وكلها مرئيات لها ما لها من قدسية في تاريخ الفن الطويل.

> أعمال الفنان تستند إلى واقعية مفرطة، لكنها تهرب إلى سريالية خاصة تزاوج بين الواقعي والحُلمي وتنتصر للإنساني

هذا وتتداخل في أعماله ملامح فنية عدة تتشابك فيها التصويرية الصباغية المفرطة والسريالية، بالتقنية وأبعادها اللامرئيـة، إذ تتحـول إلـى إبداعيـة تتعلـق بتحول أنطولوجي مرتبط بأفق ميتافيزيقي للتقنية، وأفق الفن المعاصر بكل ما يسـتدعي معه من تحكم بكل ما هو بصري.

كيميائي في المختبر

تحكـم الفنـان بمفاصـل أعمالـه يعـزى إلى سـعيه لاسـتحداث تجربة خاصة تمـزج بين المرئي وما فوقه، بين الواقعـي ومـا فـوق الواقعـي، فـي محاولة لتصوير اللامرئي والغائب عن إدراكاتنا البصرية، تلك الميتافيزيقيات التـي نتعايـش معها ولا نسـتطيع أن نضعهـا إزاء مقياس محـدد، كالحرية مثلا.

وليسـت أعمال الشـاهدي الجديدة آثـارا فنيـة تصويريـة تتبـع مـآزق الكلاسـيكية وهندسـيتها وحساباتها الأولمبيـة، التـي تجعـل الفـن حبيس حسـابات دقيقة، لا تترك للفنان متسعا مـن اللهو واللعب والمـرح، الذي يجعل العمـل منبثقـا مـن الذات الإنسـانية الفنانة، باعتبارها منطلق الفن لا العالم الخارجـي، فالفنان المعاصر لا يسـعى إلى المحـاكاة، بل إلى إعـادة الصياغة والتشـكيل والخلق. أي إعـادة ترتيب الشـظايا وفوضـى هـذا الكـون فوق القماشة.

إن الأثر الفني كما يخبرنا جاك دريدا، هو "رأب للصدع والتشقق وضمد الجراح وعلاج للذات المتشظية". وهذا ما نجح فيه هذا الفنان وهو يعرج نحو انعطافه الاستتيقي الجديد متأثرا، كما غيره من الفنانين المحدثين والمعاصرين المشدودين إلى رغبة التجديد والتجريب، بالظرفية العالمية والإنسانية الجديدة التي يتحكم فيها كائن "لامرئي" يستحيل "القبض عليـه". وككيميائـي فـي مختبـره، يجرب عبدالإله الشـاهدي صباغاتـه المتجـددة ليعيد تركيـب نسـيج هـذا الكون عبـر تلك المشـاهد التـي تضعنـا أمـام حـالات إنسـانية حق الوقوف عندهـا وتأملها مليا في ظل ما نعيشه الآن.

> الفنان يعيد تركيب نسيج هذا الكون عبر تلك المشاهد التي تضعنا أمام حالات إنسانية حق الوقوف عندها وتأملها مليا في ظل ما نعيشه الآن

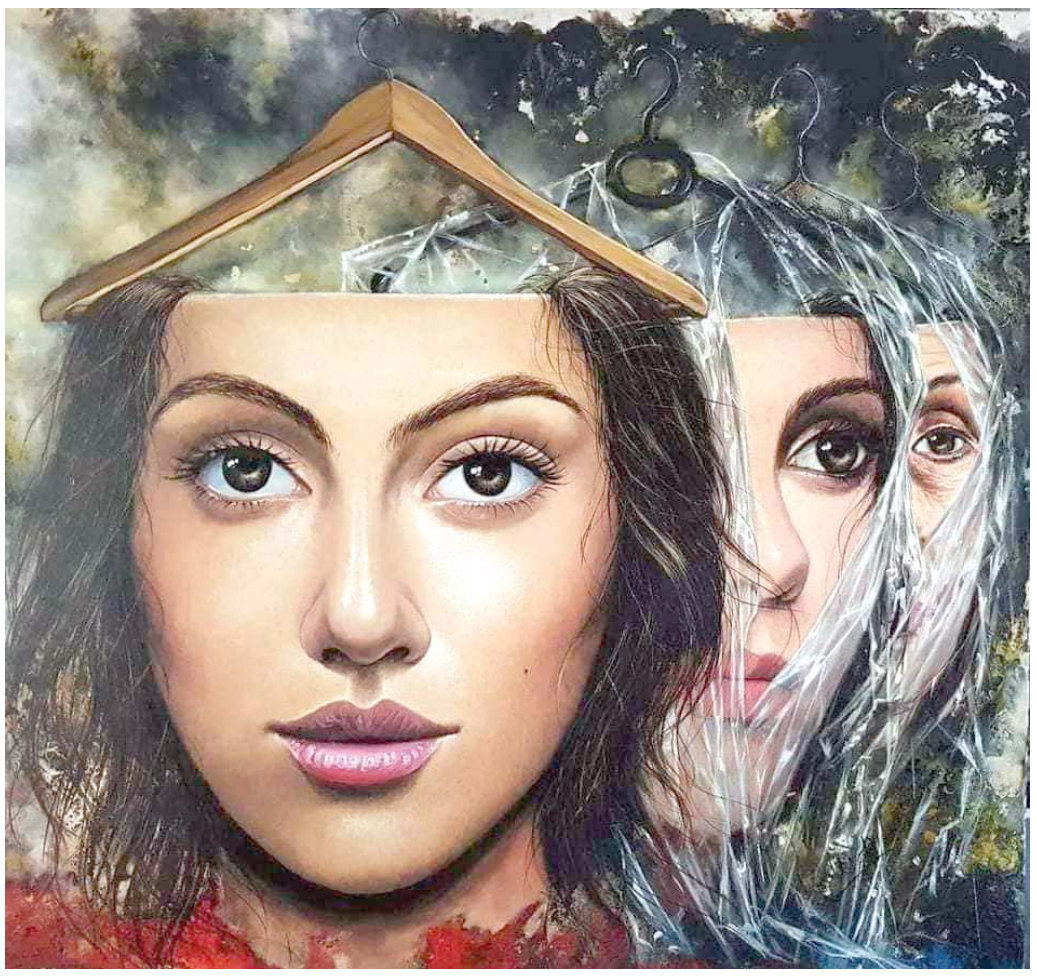

المرأة مدخل لإنشاء مجتمع الحداثة والتقدم

وجوه يكتبها الزمن

البشر في العزلة كالعصافير المسجونة